# رسالة في ليلة التنفيذ(*)

أَبَتاهُ، ماذا قد يخطُّ بناني ... والحبلُ والجلادُ منتظرانِ
هذا الكتاب إليكَ من زنزانةٍ ... مقرورةٍ[1] صخريَّةِ الجدران
لم تَبْقَ إلا ليلةٌ أحيا بها ... وأحسُّ أن ظلامها أكفاني
ستمرُّ يا أبتاهُ ـ لستُ أشكُّ في ... هذا ـ وتحملُ بعدها جُثماني

* . * . * . *

الليلُ من حولي هدوءٌ قاتلٌ ... والذكرياتُ تمورُ في وجداني
ويهدُّني ألمي، فأنشدُ راحتي ... في بضعِ آياتٍ من القرآن
والنفسُ بين جوانحي شفافةٌ ... دَبَّ الخشوع بها فهزَّ كياني
قد عشتُ أومنُ بالإلهِ ولم أذقْ ... إلا أخيراً لذةَ الإيمان
شكراً لهم، أنا لا أريدُ طعامَهم ... فليرفعوه، فلستُ بالجوعان
هذا الطعامُ المرُّ ما صنعتْه لي ... أمي، ولا وضعوه فوقَ خُوان[2]
كلا، ولم يشهدْه يا أبتي معي ... أخوانِ لي جاءاه يستبقان
مَدُّوا إليَّ به يداً مصبوغةً ... بدمي، وهذي غاية الإحسان

---

(*) كتبت هذه القصيدة في آذار ـ مارس ـ ١٩٥٥ ولها بقية طويلة في ديوان «جراح مصر» للشاعر. وكان ناشر المجموعة الأولى من شعر الرفاعي (محمد كامل حته) قد وضع لها مقدمة يوحي بها أن القصيدة كتبت سنة ١٩٥٨ وأنها قيلت بمناسبة أحداث العراق زمن عبد الكريم قاسم. . ولكن أصول هذه القصيدة توضح أن كتابتها كانت سنة ١٩٥٥.

(١) مقرورة : باردة.

(٢) الخوان : بضم الخاء وكسرها: منضدة الطعام.

والصمتُ يقطعُهُ رنينُ سلاسلٍ ... عبثتْ بهنَّ أصابعُ السَّجان

ما بين آونةٍ تمُرُّ... وأختها ... يرنو إليَّ بمقلتَيْ شيطان

من كوَّةٍ بالبابِ يرقبُ صيدهُ ... ويعودُ في أمنٍ إلى الدوران

أنا لا أحسُّ بأيِّ حقدٍ نحوَهُ ... ماذا جنى؟ فتمسُّه أضغاني

هو طيّبُ الأخلاقِ مثلُكَ يا أبي ... لم يبدُ في ظمأ إلى العدوان

لكنَّه إنْ نامَ عني لحظةً ... ذاقَ العيالُ مرارةَ الحرمان

فلربما وهو المروِّعُ سَحنةً[1] ... لو كان مثلي شاعراً لرثاني

أو عاد - من يدري ؟ - إلى أولادِه ... يوماً وذُكِّر صورتي لبكاني

وعلى الجدارِ الصُّلبِ نافذةٌ بها ... معنى الحياةِ غليظةَ القضبان

قد طالما شارفتُها[2] متأملاً ... في الثائرين على الأسى اليقظان

فأرى وجوماً كالضبابِ مصوِّراً ... ما في قلوبِ الناس من غَليان

نفسُ الشعورِ لدى الجميعِ وإن همُ ... كتموا، وكانَ الموتُ في إعلاني

ويدورُ همسٌ في الجوانح ما الذي ... بالثورة الحمقاءِ قد أغراني؟

أوَ لَمْ يكنْ خيراً لنفسيَ أن أُرى ... مثلَ الجميع أسيرُ في إذعان؟

ما ضرَّني لو قد سكتُّ، وكلما ... غلبَ الأسى بالغتُ في الكتمان

هذا دمي سيسيلُ، يجري مطفِئاً ... ما ثار في جنبيَّ من نيران

وفؤاديَ المؤارُ في نبضاتِهِ ... سيكفُّ في غده عنِ الخفقان[3]

والظلمُ باقٍ، لنْ يحطِّمَ قيدَه ... مَوْتي، ولن يودي به قرباني[4]

ويسيرُ ركبُ البغي ليسَ يصيرُهُ ... شاةٌ إذا اجتُثَّتْ من القُطعان

* . * . * . *

---

(١) السحنة: بسكون الحاء وفتحها: الهيئة، اللون.

(٢) شارف المكان: علاه. شارف الشيء: اطلع عليه من فوق، قاربه ودنا منه.

(٣) المؤار: السريع.

(٤) يودي: يزيل ويذهب، قرباني: تضحيتي.

هذا حديثُ النفسِ حين تشقُّ عن ... بَشَـرِيَّتي.. وتمـورُ بعـد ثـوان
وتقـولُ لي: إنَّ الحيـاةَ لِغـايـةٍ ... أسمى من التـصفـيقِ لـلطغيـان
أنفاسُكَ الحرَّى وإن هيَ أُخمدت ... ستـظلُّ تغمـرُ أفْقَهُم بـدخـان
وقروحُ جسمِكِ وهو تحتَ سياطِهم ... قسمـاتُ صبحٍ يتقيـهِ الجاني[1]
دمـعُ السجينِ هناكَ في أغـلالِـهِ ... ودمُ الشهيـدِ هنـا سيلتـقيـان
حتى إذا مـا أُفعمَتْ بِهما الـرُّبا ... لَمْ يبقَ غيـر تمـرُّدِ الفيضـان
ومِنَ العواصفِ ما يكونُ هبوبُهـا ... بعـدَ الهـدوءِ وراحـةِ الـرُّبـان
إنَّ احتدامَ النارِ في جوف الثرى ... أمـرٌ يثيـرُ حفيـظة البـركـان
وتتـابُـعُ القـطرات ينـزل بعـده ... سيـلٌ يليـه تـدفُّق الـطوفـان
فيموج.. يقتلع الطغـاة مزمجـراً ... أقـوى من الجبـروت والسلطان
أنا لست أدري، هل ستُذكَر قصتي ... أم سوف يعروها دجى النسيان؟
أو أنني سـأكـون في تـاريخنـا ... مـتـآمـراً أم هـادمَ الأوثـان؟
كـل الـذي أدريـه أن تجـرُّعي ... كـأسَ المذلـةِ ليس في إمكـاني
لـو لم أكن في ثـورتي متـطلّبـاً ... غيـر الضيـاء لأُمتّي لكـفـاني
أهوى الحياة كريمةً لا قيـدَ، لا ... إرهـابَ ،لا استخفافَ بـالإنسانِ
فإذا سقطتُ سقطتُ أحملُ عزتي ... يغلي دمُ الأحـرارِ في شـريـاني

* . * . * . *

أبتاهُ، إنْ طلعَ الصباحُ على الدُّنى ... وأضاءَ نـورُ الشمس كلَّ مكان[2]
واستقبـلَ العصفورُ بين غصـونِـهِ ... يـومـاً جـديـداً مشـرق الألـوان
وسمعتَ أنغـامَ الـتفـاؤلِ ثـرَّةً ... تجري على فمِ بائعِ الألبان[3]
وأتى يـدق ـ كما تعـوَّد ـ بابَنـا ... سيـدقُّ بـابَ السجن جـلَّادان!

---

(١) القروح : الجروح جمع قرح.
(٢) الدنى : جمع الدنيا.
(٣) ثرةً : كثيرة.

وأكـون بعـدَ هنيهـةٍ متـأرجحـاً ... في الحبلِ مشدوداً إلى العيـدان
لِيَكُنْ عزاؤك أنَّ هذا الحبـلَ ما ... صنعْتُـهُ في هذي الـربوع يـدان
نسجـوهُ في بلدٍ يَشِـعُّ حضـارةً ... وتُضـاءُ منـه مشـاعـلُ العِـرفـان
أوْ هكذا زعموا، وجيء بِهِ إلى ... بلدي الجريحِ على يـد الأعوان
أنا لا أريدُكَ أنْ تعيشَ محطّماً ... فـي زحمـةِ الآلام والأشـجـان
إنَّ ابنَـك المصفـودَ في أغـلالـه ... قد سيق نحو الموتِ غير مـدان
فـاذكـرْ حكـايـاتٍ بـأيـامِ الصبـا ... قد قُلتَها لي عن هَـوى الأوطانِ
وإذا سمعتَ نشيج أمي في الدجى ... تبكي شباباً ضاع في الريعان[1]
وتُكَتِّم الحسـراتِ في أعمـاقهـا ... ألـمـاً تـواريـه عن الـجيـران
فاطلب إليها الصفح عني، إنني ... لا ابتغي منهـا سـوى الغفـران
ما زال في سمعي رنينُ حديثها ... ومقـالِهـا في رحمـة وحنـان
أبُنَيَّ : إني قـد غـدوتُ عليلةً ... لم يبق لي جَلَدٌ على الأحـزان
فأذِق فؤادي فرحةً بالبحث عن ... بِنْت الحلال ودَعْكَ من عصياني
كـانت لهـا أمنيّـةً.. ريـانـةً ... يـا حُسْنَ آمـالٍ لهـا وأمـانِ!
غزلتْ خيوطَ السعد مخضلا ولم ... يكن انتقاضُ الغزلِ في الحُسبان[2]
والآنَ لا أدري بـأيِّ جـوانـح ... ستبيتُ بعـدي أم بأي جَنـان[3]

* . * . * . *

هذا الذي سطّرتُهُ لَكَ يا أبني ... بعض الذي يجري بفكرٍ عان
لكنْ إذا انتصـر الضيـاءُ ومُـزِّقَتْ ... بِيَدِ الجموع شريعةُ القُـرصان[4]
فلسـوف يـذكـرني ويُكْبِـرُ همّتي ... مَنْ كان في بلدي حليفَ هوان
وإلى لقـاء تحت ظـل عـدالـةٍ ... قـدسيـة الأحكـام والمـيـزان

---

(١) النشيج : غصة البكاء.
(٢) المخضل : الناعم.
(٣) الجوانح : الضلوع الجنان: القلب.
(٤) القرصان : لصوص البحـر.